أهل الشام

ريبورتاج

«كل شيء على ما يرام» في دمشق. يمكن تصديق ذلك شريطة النظر إليها من زاوية محدّدة، وبعين مغمضة وأخرى نصف مفتوحة. على أرض الواقع، سيتكفّل الوضع الخدمي المزري الذي تعيشه العاصمة بتصحيح الصورة، لمن شاء أن يراها على حقيقتها

دمشق 2018
«ماذا فعلتم بالوردة»؟

تستسلم لـ«الفخامة» من حولك وتوهم نفسك بأن الوضع «مثالي وعلى ما يُرام» (الأخبار)

صهيب عنجريني

وسط مدينة دمشق، ثمّة فندقٌ يقدّم مزيجاً فريداً من البذخ والفاقة. مدخل الفندق أنيقٌ بلا تكلّف، معظمُ طوابقه في حالة مأسويّة من التهالك وتراكم الأعطال، ثمّة طابقٌ واحدٌ «مُحدّث» فيه. إذا طلبت من عامل الاستقبال معاينة الغُرف المتوافرة بنوعيها (قديم، ومحدّث) سينبّهك سلفاً إلى «الاختلاف الكبير» بينهما في كل شيء، وهو أمرٌ ستثبّته لك المعاينة. في الطوابق العادية كلّ شيء سيّئ: النظافة، الرائحة، شكل الجدران، أثاث الغُرف. إلخ. ستلزمُك خطوات صغيرة فقط لتنتقل إلى «المُحدّث» لتنقلب الصورة جذريّاً: ديكوراتٌ صارخةٌ الحداثة، إنارةٌ موزّعة في شكل أنيق، روائحُ زكيّة فوّاحة، وأثاثٌ مُفرطُ الأناقة. إن كنتَ مستعدّاً لتحمّل تكلفة «المحدّث»، يمكنك اختيار واحدةٍ من غرفه الباذخة، وبمجرّد أن تغلق عليك بابها الخشبيّ السميك، سيخفّفي صوت بكاء أطفال جيرانك في الطبقات العاديّة، وتستسلم لـ«الفخامة» من حولك، وتوهم نفسك بأنّ الوضع «مثاليّ، وعلى ما يُرام».

دمشق التناقضات

يختصرُ الفندق حال دمشق، عاصمة الوطن «الذي ليس فندقاً». دخول العاصمة من بوّابتها الشماليّة الشرقيّة ليلاً لن يعكس لك صورة رومانسيّة على الإطلاق. الظلام سيكون رفيقك على امتداد الأوتوستراد المقابل لدوما، ثمّ حرستا، حتى مدخل «البانوراما» وصولاً إلى أوتوستراد العدوي الغارق بدوره في العتمة. لا تشغل بالك في التساؤل عن الحكمة من ترك مدخل العاصمة من دون أنوار، ربّما كان لدى «المحافظة» أسبابها، كحجب مشهد الدمار عن ناظريك، أو تذكيرك بأنّ الحرب لا تزال هنا، أو تقنين المصروفات، أو حتى الإهمال؛ تتجاوز «العدوي» إلى وسط العاصمة وقد تغيّرت الصورة قليلاً. لديك الآن خيارات عدّة: يمكنك التوجّه نحو أحد الأحياء الأنيقة: المالكي، أبو رمّانة، الروضة، فتشعر بأنّ «كلّ شيء على ما يرام». أما إذا كنتَ «وجه فقر» أو «غاوياً» له، فلتقصد أحد الأحياء الفقيرة المهملة، وما أكثرها، ولتعاين الصورة الأوسع بمأسوية أحوال أبنائها وبيوتهم وشوارعهم.

> حتى المدينة القديمة لم تعُد نظيفة كما هي صورتها في الأذهان

البحث عن «حاوية»!

إن كنتَ من عشّاق المشاوير الشعبيّة، وأحببت أن تتلذّذ بـ«صحن كنافة» اشتريتَه من أحد المحال في منطقة «البحصة» بينما تتمشّى في ليل دمشق، فاعلم أنّ «مهمّة مستحيلة» تنتظرك بمجرّد التهام الكنافة. عليك الآن أن تجد حاوية أو سلّة مهملات لترمي فيها الصحن البلاستيكي. تتجاوز البحصة، مروراً بـ«ساحة المحافظة»، تعبر «شارع البرلمان» مدهوشاً للأوساخ (ليست أكواماً لكنّها لا تشبه دمشق)، يلفت انتباهك أيضاً شكل إسفلت الشارع أمام «مجلس الشعب» بتشققاته ومنحنياته الغريبة. تعبر سوق الصالحيّة من أوّله إلى آخره، تنعطفُ نحو شارع الحمراء، تصلُ الشعلان، فتعثر على ضالّتك أخيراً: سلّة مهملات مثبّتة على عمود إنارة! إذا تكاد تصدق أنك عبرت كل تلك الشوارع من دون أن تصادف واحدة، باستثناء ما يضعُه بعض أصحاب محال المأكولات أمام دكاكينهم. قد تتساءل مجدّداً عن أسباب ودوافع «المحافظة والبلديّة»، لكن عليك أن تمتلك من الذكاء ما يجعلك واثقاً بأنّك لن تعثر على إجابة منطقيّة واحدة. «لم نرَ شيئاً بعد»، يقول حسن تعليقاً على وضع النظافة المتردّي، ويضيف «اذهبوا قليلاً نحو الأطراف وستجدون العجب، حتى المدينة القديمة لم تعُد نظيفة كما هي صورتها في الأذهان». تتدخّل سعاد «لا أنصح أبداً بالذهاب إلى جرمانا (وهذه مهملات مثبّتة على عمود إنارة)، فهناك ستعرفون معنى: أكوام النفايات».

الركض المتأخر

صباحاً نقطعُ أوتوستراد العاصمة الرئيسيّة، بأنفاقها وجسورها. تلفت انتباهنا أعمال الحفريّات الكثيرة، قبل أن نكتشف أنّها أعمال «طارئة» بغية تصريف مياه الأمطار ومنعها من إغراق الأنفاق كما حصل مرّات عدّة في الآونة الأخيرة. على السن الناس تحضرُ عبارات متشابهة لدى الحديث عن الموضوع، يتقاطع معظمها عند السخريّة «ما كان عندهم خبر إنو في شتوية هالسنة»، «كل الحق على المطر، معقول تشتّي بتشرين يا زلمة!»، «المؤامرة مستمرّة والأعداء الكونيّون بدهم يغرقونا»... إلخ. يُذكّر بعض المعلّقين بأنّ غرق شوارع دمشق في الفترة الأخيرة لا يُشكّل سابقة، وبأنّ حالات مشابهة وقعت في الشتاء الماضي، «بس هديك السنة كان في أسباب وطنيّة، كانوا مسكرين مصارف المياه مشان الإرهابيين ما يتسللوا منها»، يقول أحدهم متصنّعاً الجديّة.

«ماذا صنعتم بالذهب»؟

ثمة الكثير مما يقال ويستلزم ريبورتاجات وريبورتاجات لشرحه، ثمّة الكثير مما تكتمه قلوب أبناء دمشق وسكانها، تُحجم أفواههم عن الخوض فيه وتفضحه عيونهم. نستعير من الكبير أنسي الحاج عبارة ونستأذنه في إضفاء تعديل صغير عليها كرمى لدمشق «ماذا فعلتم بالوردة»؟

بريد دمشق

في «القشلة» فقط... ضربة مسبقة على الضحك

سناء إبراهيم

في نهاية شارع الحجر المُفضي إلى ساحة باب توما وبداية شارع الأمين في قلب مدينة دمشق القديمة، تقع حديقة صغيرة اسمها «القشلة»، وهي حديقة كانت مهملة أعادت محافظة دمشق ترميمها، وبعدها، بدأ زمنها وكان موعدها مع شباب سياتون إليها لاحقاً لأنهم سددوا ما عليهم من ضرائب لامست القلب هذه المرة وليس الجيب، ودفعوا فواتير قامت بجبايتها العتمة كما الشمس على حدٍّ سواء.

دائمون ومؤقتون وعابرون هم رواد القشلة، يتوزعون على مقاعد من خشب وحجر، آخرون يجلسون في شكل متجاور على طول سور الحديقة المُبلّط حيث الكتف على الكتف، أما الظهر، فالجالسون ووجوههم باتجاه الشارع يسندون ظهورهم إلى الجالسين ووجوههم باتجاه الحديقة، شباب وشابات وبأجيال متفاوتة، لا أحد يرى وجه الآخر إلا في استدارة نادرة تحدث فجأة لإفساح مكان «لقنينة البيرة» أو عندما يرمي أحدهم نكتة ويلتقطها آخر في غفلة من صمت قصة انتهت أو حديث توقف فجأة. الفسحة الأكبر المتاحة هي مساحة ما تلتقطه الأذن التي تنفرد بالخاص، وفي الخاص أحاديث ينقلها صوت المتحدث الحزين في كل مرة يحكي فيها عن حلمه الذي سقط أو صوت المتحدث الفَرِح في كل مرة يحكي فيها عن وعده المحمول على ظهر حلم لم يسقط بعد.

«بتعرفي شو يعني أنك تسافري يا ندى؟ يعني أنك تحكي بالأجنبي وتضحكي بالأجنبي، ولك أنتِ عم تتخيلي ضحكتك بالأجنبي؟ أنت ما بتعرفي تضحكي بالأجنبي ما بتعرفي... ولك حتى إذا ضحكتي مين رح يفهم ضحكتك؟ مين رح يحبها، مين رح يفهم النكتة لما تكتبيها؟»، هذا ما التقطته الأذن من الخاص الذي دار بين أحد الجالسين ووجهه إلى الحديقة، ويبدو من حديثه أنه خرج حديثاً من السجن فيتابع قوله لندى: «هون في مين بيشبهك، في مين دفع ضريبة متلك، نحنا هلق قاعدين أنا وأنتِ لأنه مطمنّين أنو دفعنا الضريبة مسبقاً، ضريبة مسبقة على الضحك، كل ضحكة عم نضحكها هلق مدفوع حقها سلف ولقدام كتير، أنا دفعت سنة ونص من عمري بالسجن بتهمة ما إلي فيها وأنتِ دفعتي من عمرك 7 سنين سجن بالحياة كمان ما إلك ذنب فيها، أنا كنت سجين العتمة وأنتِ كنت سجينة الضوء، أنا كنت حبيس مترين بمتر وأنتِ كنتِ حبيسة قنّاص حلم، الشغلة الوحيدة الفرق بيناتنا أنو فاتورتك كانت أغلى وضريبتك كانت أغلى، أنتِ كانت الدني قدامك وما كنتِ قادرة تطلعي برات قلبك، كانت الشمس بوجهك وما كنت قادرة تشوفي أصبعتك، البواب قدامك كلها مفتوحة بس ما قادرة تغادري، الحياة عا بعد خطوات منك وما قادرة تخطي خطوة اتجاهها، أنا ما كنت شوف أصبعتي بالعتمة بس كنت قادر شوف بكرا». ختم الجالس في مكانه حديثه: «ندى، فكّري منيح... دفعتي الضريبة هون مرة، حرام ترجعي تدفعيها مرة تانية بأوروبا».

القشلة في المعنى، هي كلمة تركية الأصل تعني المكان الذي يمكث فيه الجنود أو الحصن أو القلعة أو السراي، أما في لغة وحديث روّادها من الشباب والشابات فهي منديل للدموع وأسفنجة للوجع، هي قنينة «بيرة» تأخذ بعيداً من نزيف الدم والخبز وخزينة الدولة إلى داخل النفس، هناك حيث النزيف ليس دائماً دماً. القشلة كما يقول سورها، هي الحديقة التي لم تتعالَ على روادها، ولم تضع بين مقاعدها ذاك الكرسي المرتفع الذي ينتشلك من روح الشام ودفئها ليغرزك في صقيع المالكي وأبو رمانة، تلك المناطق التي مهما حاولت أن تقترب منها لتجد شيئاً مشتركاً معها، لا تجد منفذاً لك سوى الهرب، ولا تجد بدّاً من الشعور ببرودة الفوارق الطبقية مهما حاولت أن تدفن حواسك.

الحدائق هي تماماً كما المدن وكما الأشخاص، بعضها ينصب لك فخّاً، بعضها يقتلك ببندقية، وبعضها الآخر يصطادك بحديث عابر لعابر سبيل قد يصبح في لحظة صدّارة ما تبقى من عمرك.

أوراق اقتصادية

موازنة 2019: «شكراً» حكومة!

نسرين زريق

قبل أيّام، ربط وزير الماليّة السوري بين أي زيادة محتملة للرواتب ووفورات موازنة عام 2019. جاء ذلك بعد أن خلا مشروع الموازنة من اعتمادات مخصّصة لزيادة حقيقيّة على الرواتب، «في حال زيادة الرواتب في العام القادم فإنها تغطى من وفورات الموازنة»، قال الوزير أمام مجلس الشعب، مبرّراً عدم تخصيص اعتمادات للزيادة. في الحقيقة، إنّ حدوث زيادة على الرواتب يبدو أمراً ممكناً ببساطة إذا ما خفّف 32 شخصاً (أعضاء الحكومة) نفقاتهم ونفقات فرقهم قليلاً.. قليلاً فقط. المضحك المبكي أن الموازنة التي اهتمّت بذكر أدق تفاصيل «الضيافة» و«الملبّس» والقرطاسيّة، تركت زيادات الرواتب لوفورات قدريّة. لا بأس هنا من الوقوف مجدّداً مع بند «النفقات الإداريّة» بملياراته التي فاقت الخمسين، لكن بتفصيل مُسهب ليعرف السوريون شيئاً عن سياسات حكومتهم الماليّة. كانت مخصّصات القرطاسيّة في الموازنة الماضية 7 مليارات ليرة، وارتفعت في الموازنة الجديدة إلى 9 مليارات (بزيادة حوالى 2 مليار ليرة، أي 4,7 ملايين دولار!). حبّذا لو تشرح لنا الحكومة رأيها بـ«الاتمتة»، حبّذا أيضاً لو يخبرنا أحدٌ لماذا خلت الموازنة من أي إشارة إلى «البحث العلمي» مثلاً! ثمة تفصيل ثانٍ يبدو أشدّ إثارة للدهشة، وهو مخصّصات «الكسوة والملابس» التي كان نصيبها في العام الماضي 5 مليارات ليرة، وارتفعت إلى 6,6 مليارات ليرة (أكثر من 14 مليون دولار!) كسوة وملابس لمن؟ هل ستفاجئنا الحكومة بتوزيع ملابس على الشعب؟ النفقات الإداريّة المتنوعة ولوازم الإدارة الثابتة والنفقات الإداريّة الخاصة وبند ضيافة ودعاية ومؤتمرات، كان جميعها مخصصاً بمبلغ 40 مليار ليرة في الموازنة الماضية، وارتفع الرقم إلى 53,6 مليار ليرة حالياً، ما يعني أنّ مخصصات نفقات المكاتب الحكوميّة قد ارتفعت 13 مليار ليرة سورية، (للتذكير، المليار هو ألف مليون ليرة سورية).

وإذا ما تجاوزنا «النفقات الإداريّة» إلى بنود أخرى في الموازنة، فسنرى أنّ المساهمة المخصصة لمديريات الأوقاف كانت في الموازنة الماضية ملياري ليرة، وبقيت ثابتة عند الرقم نفسه في الموازنة الحالية (في المقابل خُصّص للمساهمة في النشاط الثقافي 0,83 مليار فقط). لكن مهلاً، ما الحاجة إلى هذه المساهمة بعد صدور القانون 31 الذي أمّن استقلالية ماليّة تامّة للأوقاف، وأعفاها مع موظّفيها من الضرائب والاقتطاعات؟

> يمكن الحكومة ان توفر جهودها الضائعة في ضبط الاسعار لان الجهد معدوم

أما بند «إعادة الإعمار» فقد خُصص في الموازنة الحالية برقم مماثل للموازنة الماضية وهو 50 مليار ليرة. يا سلام! مخصصات «إعادة الإعمار» أقل من مخصصات «النفقات الإداريّة» بثلاثة مليارات ليرة سوريّة!

نقف قليلاً عند بند «مساهمة الدولة في تثبيت الأسعار» وقد انزلق منه تفصيل «الأدوية السرطانية» ليوضع في بند «النفقات الإدارية» (لتبرير تعاظمها على ما يبدو). بلغت مخصّصات بند «التثبيت» 811 مليار ليرة، وهو مبلغ يكفي لزيادة الرواتب والمعاشات بنسبة 190%. ويمكن الحكومة أن توفر جهودها الضائعة في ضبط الأسعار، لأن الجهد معدوم والنتيجة تقارب الصفر! لو فكّرت الحكومة في زيادة الرواتب وتخفيض ضرائب الموظفين والعسكريين (لأنهم فعلياً السواد الأعظم من الطبقة المعدمة)، فلا شك في أن الناس قادرون على أن يتعايشوا مع ارتفاع الأسعار (وهو حاصل حاصل). ولا حاجة حينها إلى ألغاز وأحجيات تزعم أنّ «إخفاء زيادة الرواتب يبند فرص العمل هو قرار سياسي»، أي كمن يقول «لا توجيهات سياسية بزيادة رواتبكم». لحظة، كدنا ننسى أنّ الموازنة الجديدة قد ألغت مخصّصات «تمويل مشاريع مولدة لعمل ذوي الشهداء» وحوّلتها إلى صفر، بعد أن كانت 4500 مليون ليرة في الموازنة الماضية. شكراً حكومة!

لقطة

سوق «البزورية» مقلوباً في عزّ الموسم!

سناء علي

على غفلةٍ منهم وبلا سابق إنذار، فوجئ تجار البزورية في سوق مدحت باشا، بمنطقة دمشق القديمة، صباح الثلاثاء الفائت، بعمليات حفر ونزع الأرضية الحجرية للسوق. تأتي العمليات بهدف «ترميم الأرضية وإعادة رصفها من جديد بعد زيادة طبقة اسمنتية لتسوية التعرجات والانحناءات في الطريق»، بحسب ما بيّن متعهد المشروع لأصحاب المحال.

المشروع المثير للدهشة في توقيته وهدفه، خلّف موجة من الاستغراب بين تجار السوق وزبائنه الذين ينتظرون بفارغ الصبر موسم الأعياد السنوية، وخاصة عيد المولد النبويّ الذي يصادف بعد أيام. ومن المعروف أن سوق البزورية متخصص في بيع السكاكر والشوكولا والفواكه المجففة والمكسرات والتوابل والملبّس المشهور في مناسبات الدمشقيين وأعيادهم.

(الأخبار)

في الطريق الممتدة بين «سوق مدحت باشا» و«سوق الصاغة القديم» انكفأ أصحاب المحال في داخل حوانيتهم، بعد أن جمعوا معروضاتهم المتنوعة والملونة حفاظاً على نكهتها وسلامتها من الغبار المتناثر في كل مكان. وانشغلوا بتجاذب أطراف الحديث في ما بينهم عن الوعود التي أطلقها المتعهد بإنجاز العمل خلال مدّة أقصاها عشرة أيام، وهو ما يبدو صعباً بعض الشيء، إن إن أكوام الحجارة المنزوعة وحدها تحتاج إلى أسبوعين على أقل تقدير لاستكمال عملية تنظيفها من بقايا الإسمنت. وإذا ما وضعنا في الحسبان رداءة الأحوال الجوية، فإن الأمر قد يمتد شهراً!

ظهر يوم الأربعاء، كان شادي ذو الغنى، صاحب أحد محال البهارات والمكسّرات، يستعد لإغلاق دكانه قبل موعده المعتاد بساعات طويلة، بعد أن امتنع المارة عن العبور في السوق المقلوبة رأساً على عقب. «لم يدخل دكّاني اليوم سوى أربعة أو خمسة زبائن على الأكثر، وهو أمر غير طبيعي أبداً في هذا الوقت من العام»، يقول شادي لـ«الأخبار»، ويضيف «أمس (الثلاثاء) لم يتسنّ لنا العمل نهائيّاً، إذ كان الوضع سيئاً للغاية والحجارة تغلق الطريق بالكامل».

بدوره، يتحدّث وليد المصري (تاجر مكسرات وتوابل وضيافات) عن أولويات أخرى كان الأجدر بالمحافظة أخذها في عين الاعتبار قبل نزع الأرضية. «نريد أن نحافظ على السوق، ونحن على استعداد للمساهمة في العمل أيضاً، لكن الوقت غير مناسب على الإطلاق»، يقول. ويضيف «سبق أن طرحنا على المكتب المختص في المحافظة ضرورة إصلاح السقف وفتح مصارف مياه، بدلاً من الأنهار التي تنسكب فوق بضائعنا كلما هطل المطر، كما طالبنا مراراً بتغيير كابلات الكهرباء، التي أصبحت قديمة جداً قبل أن نلاقي مصيراً مشابهاً لمصير سوق العصرونية (في إشارة إلى الحريق الذي طاول العصرونيّة)».

لا يُبدي التجار اعتراضاً على تنفيذ هذه الأعمال، ويفضلون توجيه «عتب كبير» لعدم إخبارهم بتوقيت البدء بها، أو تأجيلها إلى ما بعد نهاية العام، إلى جانب استفهامات عديدة عن جدوى مشروع كهذا، بينما ينام الآلاف في مساكن شبه مدمرة!